

الفصل الحادى عشر

حرية الصحافة فى الولايات المتحدة

صعوبة تقييد حرية الصحافة - الأسباب الخاصة التى أدت ببعض الأمم إلى الاعتزاز بهذه الحرية - حرية الصحافة نتيجة لازمة لسيادة الشعب بالشكل الذى يفهمها به الأمريكيون - لغة الصحافة الدورية عفيفة فى الولايات المتحدة - للصحافة الدورية نزعات خاصة ، تتجلى فى الولايات المتحدة - آراء الأمريكيين فى كبح تعسف الصحافة ودسائسها عن طريق القضاء - لم كانت الصحافة فى فرنسا أقوى منها فى أمريكا ؟

لا يقتصر تأثير حرية الصحافة على الآراء السياسية وحدها ، بل يمتد إلى جميع آراء الناس ، فيعدل عاداتهم وقوانينهم . وسأحاول فى موضع آخر من الكتاب أن أبين مدى مالحرية الصحافة من تأثير فى الولايات المتحدة ، وأبين الاتجاه الذى وجهت إليه الأفكار ، والصيغة التى أفاضها على أخلاق الأمريكيين الإنجليز ، وعلى مشاعرهم ، أما الآن فحسبى أن أدرس النتائج التى أدت إليها حرية الصحافة فى علم السياسة .

لست أخفى عن القارئ أنى لأكن حرية الصحافة هذا الحب العظيم الكامل الذى تستثيره فىنا عادة تلك الأمور السامية بطبيعتها كل السمو . ولكننى أقابل حرية الصحافة من حيث ما تمنعه عن الناس من ضرور أكثر مما تكفله لهم من فوائد^(١) .

ليت أحداً يستطيع أن يبين لنا موقفاً وسطاً بين استقلال الرأى العام استقلالاً تاماً ، وبين عبوديته الكاملة ، فعلى أمل إلى قبوله . ولكن الصعوبة هى الوصول إلى هذا الموقف الوسط . فإن كنت ترمى إلى كبح استهتار الصحافة ، وتلزمها ضرورة مراعاة اللياقة فى اللغة التى تستخدمها ، فما عليك إلا أن تحاكم المذنب أولاً أمام هيئة المحلفين . فإن هم برءوا ساحته أصبح رأى الفرد هنا عندئذ رأى الشعب بأسره .. وبذلك نكون قد عملنا أكثر مما ينبغى من جهة وأقل مما ينبغى من جهة أخرى . ولكن إن أنت سرت إلى أبعد من هذا ، وأقمت عليه قضية أمام المحكمة (فحتى هنا يجب أن يسمع القضاة القضية قبل الفصل فيها) أصبحت المبادئ نفسها التى لم يجرؤ أحد من الكتاب أن يعترف بها ، تعرض كلها سافرة فى أثناء الدفاع دون خوف من عقاب ، وما كان يلوح إليه تلميحاً مبهماً فى نشرة واحدة صار يكرر فى عدد كبير من المنشورات . ليست اللغة سوى التعبير الخارجى عن فكرة - وإن شئت قلت إنها لا تعدو أن تكون تجسماً للفكرة ؛ ولكنها مع ذلك ليست

(١) قد يكون ذلك من رجع العدى لتلك المعارك القلمية الشهيرة التى قامت بشأن حرية الصحافة فى عهد عردة الملكية فى فرنسا وكان بطلها رويه كلار .

بالفكرة ذاتها . وقد تصدر أحكامها على الجسم ، أما المعنى وروح المؤلف فأدق وألطف من أن تمسهما سلطة المحاكم بسوء . لقد عملت إذن أكثر مما ينبغي ، فلا سبيل للنكوص ، وأقل ما ينبغي لإدراك غايتك . فلا يسعك إلا أن تتابع سيرك وتقرر فرض الرقابة على المطبوعات ، ومع ذلك فلانسى أن الخطيب السياسى مازال حراً يقول ويسمع ، وبذلك لا يكون غرضك قد تحقق ، لأنك لم تعمل شيئاً سوى أن زدت الأمر سوءاً على سوءه . فليس الفكر كالقوة المادية التى تنمو وتزداد بزيادة عدد عواملها المؤثرة فيها ؛ والمؤلفون لا يعدّون كما تعد الجنود فى الجيش ، بل الأمر على النقيض من ذلك . فكثيراً ما تزداد قوة الفكرة بزيادة كبيرة بحسب قلة عدد الرجال الذين يعبرون عنها . فعبارات رجل واحد راجع العقل ، إذا ما وجهت إلى استثارة انفعالات جماعة ألقت إليه أسماها ، كان لها من القوة أكثر مما يتشدد به ألف خطيب . وإن سمح للناس أن يتكلموا بحرية فى مكان واحد ، فالنتيجة واحدة ، كما لو سمح بحرية الكلام فى كل قرية . فيجب عليك أن تقضى على حرية الكلام إذن كما قضيت على حرية النشر والصحافة ، وعندئذ لا تكون قد ألجمت كل لسان ، وأجبرت كل إنسان على التزام الصمت ، ولكن غرضك الذى رمت إليه إنما كان أن تمنع سوء استخدام الحرية ؛ فإذا بك تخضع عند قدمى مستبد طاغية . لقد اندفعت فى الحرية والاستقلال ، إلى التطرف فى العبودية ، من غير أن تصادف فى طريقك موقفاً واحداً ركيناً تستطيع أن تقف عنده .

وثمة دول معينة لديها أسباب خاصة للاعتزاز بحرية الصحافة غير تلك الأسباب العامة التى أشرت إليها توا . ففي بعض البلاد التى تقول عن نفسها أنها حرة يخالف كل موظف من موظفى الحكومة القوانين واللوائح دون أن يخشى عقاباً ، لأن الدستور الاتحادى (الفدرالى) لا يخول للمظلومين حق الشكوى إلى المحاكم ، وفى هذه الحالة لا تكون حرية الصحافة عند هذه الشعوب من ضمانات الحرية والأمن للمواطنين فحسب ، بل تكون ضمانهم الوحيد فى كل ذلك . فإن اقترح حكام هذه الأمم إلغاء حرية الصحافة ، ردت الأمة كلها على ذلك بقولها : أعطونا إذن حق إقامة الدعوى عليكم ، وعلى ما ترتبونه من جرائم ، أمام المحاكم العادية ، وعندئذ قد نفكر فى عدم الالتجاء إلى محكمة الرأى العام .

هذا وليست الرقابة على الصحف خطيرة فحسب فى البلاد التى يغلب عليها الأخذ بمبدأ سيادة الشعب ، بل هى تكون سخيصة أيضاً كل السخف . فعندما يكون حق كل مواطن فى الاشتراك فى حكومة بلاده أمراً معترفاً به ، يجب أن نفترض فيه القدرة على اختيار ما يجب اختياره من الآراء التى تشغل بال معاصريه ، وأن نفترض فيه أنه يستطيع أن يقدر الحقائق المختلفة التى يمكن أن تستبطن منها نتائج ، حق قدرها . فسيادة الشعب ، وحرية الصحافة ، يصح أن تعبرا إذن أمرين متلازمين ، كما أن الرقابة على الصحف وحق الانتخاب العام شيان متضادان تضاداً لا يرجى معه أى توفيق بينهما ، ولا يمكن الاحتفاظ

بهما في مؤسسات الشعب نفسه . فليس من بين الاثنى عشر مليوناً من الناس الذين يعيشون في الولايات المتحدة رجل واحد تجرأ على أن يقترح فرض أى قيد على الصحافة . وأول صحيفة^(١) وقع عليها نظرى عند وصولى إلى أمريكا اشتملت على المقال الآتى :

« كانت لغة جاكسون (الرئيس) في هذه المسألة كلها لغة مستبد طاغية لا تعرف الرحمة إلى قلبه سيلاً . فليس يشغله شيء غير المحافظة على سلطته . فالطموح جريته ، وسوف يكون عقابه كذلك ؛ والدس طبيعته وسوف يقضى على كل ألامه ويجرده من قوته ، إنه يحكم بوسائل الرشوة والفساد ، ولا بد من أن يجبر عليه مسلكه البعيد عن الأخلاق القوية ، العار والارتباك . إن سلوكه في الميدان السياسى لأشبه بسلوك المقامر . لقد نجح الرجل في حينه ، ولكن ساعة الحساب قريبة ، وسوف يضطر إلى أن يرد ما اكتسب ، ويلقى أوراقه الزائفة ، ويقضى بقية عمره في عزلة عن الناس ، فيتيح له الفراغ ما يمكنه من أن يعلن جنونه كما يشاء ويهوى . إن الندم فضيلة ، ومن المحتمل أن يظل قلبه خلوا منها إلى الأبد . »

يرى كثيرون في فرنسا أن عنف الصحافة فيها يرجع أصلاً إلى عدم استقرار الحالة الاجتماعية ، كما يرجع إلى أهواء الفرنسيين السياسية ، وإلى ذلك الشعور العام بالقلق الذى غلب على نفوس الناس إثر ذلك كله ، حتى خيل لهم أن الصحافة ستخلى عن عنفها الذى عرفت به عندما يحصل المجتمع على قسط معين من الهدوء واستقرار النظام . أما من ناحيتى فأؤثر أن أرجع هذه الأسباب إلى تلك السيطرة غير العادية التى تمارسها الصحافة على الأمة ، ولا يدور بخلدنى أن لهذه الأسباب نفوذاً كبيراً على لغة الصحافة والأساليب التى تصطنعها في التعبير . للصحافة الدورية ، في نظرى ، أهواء وميول خاصة بها ومستقلة عن الظروف التى تحيط بها . هذا وإن الأحوال الحاضرة في أمريكا لتؤيد هذا الرأى .

ولعل أمريكا هى البلد الوحيد الآن في العالم كله الذى فيه أقل ما يمكن من بذور الثورة ، ولكن الصحافة فيها ليست مع ذلك أقل هدماً وتدميراً من حيث مبادئها ، منها في فرنسا . ذلك إلى أنها عنيفة نفس العنف من أجل أن يكون لديها ما عند صحافة فرنسا من الأساليب التى تثير الغضب من أجل الكرامة . فهى في أمريكا ، كما هى في فرنسا ، قوة عجيبة وخليط غريب من الخير والشر ، ومع ذلك لا تستطيع الحرية أن تحيا بدونها ، ولا يتسنى لها صيانة النظام العام كله وهى ضدها . وليس شك في أن قوتها في فرنسا أعظم منها في الولايات المتحدة التى يندر أن نسمع فيها بشيء اسمه قضية ترفع ضدها . ويرجع هذا إلى سبب بسيط كل البساطة . فبعد أن سلم الأمريكيون مبدأ سيادة الشعب شرعوا يطبقونه بكل إخلاص . فهم لم يقصدوا أبداً أن يخلقوا من عناصر تغير كل يوم وتبدل ، مؤسسات تعيش إلى الأبد . ومن ثم فلا جريمة إذن هى في مهاجمة القوانين الحاضرة ، مادام لا توجد أية نية لانتهاك حرمانها انتهاكاً عنيفاً . ومن رأيهم كذلك أن المحاكم الحاضرة تعجز عن وقف تعسف الصحافة وسوء استخدام سلطتها . ولما كانت لطافة اللغة البشرية

(١) صحيفة Vincenne : Gazette . يشير بذلك إلى الشمية التى اتسمت بها رئاسة أندرو جاكسون .

وأساليب التحليل فيها تيسران لها دائماً أن تفلت من التحليل القانوني ، فقد صارت الجرائم التي من هذا القبيل تفلت من أيدي كل من يحاول القبض عليها . فهم يعتقدون أن التأثير الناجع في الصحافة يستوجب قيام محكمة للنظام القائم ، وقادرة على التغلب على الرأي العام - محكمة تستطيع أن تسيّر إجراءاتها في غير ضجة أو إعلان ، وتنطق بأحكامها وقراراتها من غير ذكر لدوافعها التي أدت إلى النطق بتلك الأحكام ، وتعاقب الكاتب على نيته أكثر مما تعاقبه على لغته وألفاظه . فمن يستطيع إيجاد محكمة من هذا القبيل ويعمل على صيانتها والمحافظة عليها كان قد ضيع وقته سدى في مقاضاة حرية الصحافة . ذلك لأنه سيكون السيد المطلق في الجماعة كلها ، وحرراً في التخلص من المؤلفين ، حريته في التخلص مما يكتبون . فليس في هذه المسألة إذن وسط بين العبودية والاستتار . فكى يستطيع المرء أن يستمتع بما تحقّقه حرية الصحافة من مزايا عظيمة بالغة القيمة يجب عليه أن يرضى بما تخلفه من مساوئ محتومة . أما من يأمل أن يستمتع بالمزايا ويعفى من الشرور فقد يقع في وهم من تلك الأوهام التي تضلل الأمم عادة في أوقات مرضها عندما تحاول بعد أن عانت من متاعب الطوائف ، ويعد أن أنهكها ما بذلته من جهود ، أن تجعل الآراء المعادية والمبادئ المخالفة لمبادئها تعيش جنباً لجنب في أرض واحدة .

هذا ويعزى تأثير الصحف الأمريكية الضئيل إلى عدة أسباب ، نذكر لك بعضها : أن حرية الكتابة مثل أية حرية أخرى ، تكون بالغة الأثر كلما كانت جديدة كل الجدة على شعب لم يعتد من قبل أن يستمع إلى شئون الدولة تناقش أمامه . ومن ثم كانت ثقته بأول خطيب يتقدم للكلام . هذا ، وقد استمتع الأمريكيون الإنجليز بهذه الحرية منذ أن قامت المستعمرات في أمريكا . وزيادة على ذلك فالصحافة لا تستطيع أن تخلق في الناس انفعالات جديدة مهما بلغت مهارتها في استثارة ما قد يكون موجوداً منها فعلاً . فالحياة السياسية في أمريكا نشيطة ومنوعة ، بل ومستثارة كذلك ، ولكنها يندر أن تتأثر تلك الانفعالات العميقة التي لا تستتار إلا إذا كانت ثم مصالح تتأثر بها تأثيراً سيئاً . ولا يخفى أن الشئون المادية في أمريكا ناجحة كل النجاح . فحسبنا نظرة نلقياها على صحيفتين إحداهما فرنسية والأخرى أمريكية حتى نقف على ما بين هاتين الأمتين من فروق في هذه المسألة . فالمساحة التي تخصصها جرائد فرنسا للإعلانات التجارية ضيقة جداً ؛ والأخبار فيها قليلة ، على حين نجد الجزء الأكبر من الصحيفة تشغله المسائل السياسية اليومية . أما في أمريكا فالأمر على النقيض من ذلك ؛ فترى ثلاثة أرباع الصحيفة الضخمة حافلة بالإعلانات والباقي بالأخبار السياسية ، أو القصص أو الأحاديث النافهة ، ولا يجد القارئ إلا أحياناً ركناً مخصصاً للمناقشات العنيفة من ذلك النوع الذي يعرضه الصحفيون الفرنسيون على قرائهم كل يوم .

دلتنا الملاحظة ، وعرفنا بالنظر ، أن تأثير قوة ما يزداد كلما اتخذ توجيهها ، واتخذت إدارتها ، شكلاً مركزاً . وقد عرف هذا الأمر بالفطرة حتى أصغر المستبدين وأهونهم شأنًا .

ففى فرنسا تجمع الصحافة بين نوعين من المركزية حتى لتكاد تتركز قوتها كلها فى بقعة واحدة وفى أيد واحدة ؛ فأعضاؤها ليسوا كثيرين . ولا غرو إن كان تأثير مثل هذه الصحافة العامة فى أمة يغلب عليها التشكك ، بالغا . فمن مصلحة الحكومة أن تعقد هدنة مؤقتة معها : أما مقاومتها باستمرار فشيء من الصعوبة بمكان .

لا يوجد نوع من هذين النوعين من المركزية فى أمريكا . فليس للولايات المتحدة عاصمة ، وذكاء الشعب وقوته مبعثران فى شتى أرجاء البلاد المترامية الأطراف ، وبدلاً من أن تشع كلها من بؤرة مشتركة ، يعترض بعضها بعضاً فى كل اتجاه . ولم ينشئ الأمريكيون مركزاً معيناً تصدر عنه إدارة الشئون المختلفة العامة . فهذا الفرق ينجم من الأحوال المحلية لا من القوة البشرية ، ويرجع إلى قوانين الاتحاد ؛ فلا تراخيص تمنح ولا ضمانات تطلب من المحررين كما هو الشأن فى فرنسا ، ولا ضرائب غفغة تدفع ، كما هى الحال فى كل من إنجلترا وفرنسا ، فترتب على ذلك أن لاشئ أسهل من إنشاء جريدة فى أمريكا . وحسب المرء عدد قليل من المشتركين لسد نفقات الجريدة .

ومن ثم بلغ عدد المطبوعات الدورية وشبه الدورية فى أمريكا عدداً كبيراً يكاد العقل لا يتصوره . ويعزو أوسع الأمريكيين ثقافة واستارة ضالّة تأثير الصحافة عندهم إلى توزع قوتها وبعثرتها . فمن بديهيات العلوم السياسية المعروفة فى تلك البلاد أن الطريق الوحيد إلى تحييد أثر الصحافة العامة إنما هو الاستكثار منها .

ولست أدري كيف أن حقيقة واضحة هذا الوضوح لم تسلم بها أوروبا من قبل تسليماً أكبر مما فعلت . نعم إنى أدرك السبب الذى دعا أولئك الأشخاص الذين يأملون فى إحداث انقلاب بطريق الصحافة أن يميلوا إلى حصر هذه الصحافة فى عدد قليل من الصحف القوية ؛ ولكن ما لا يتصوره أحد أن أنصار الحالة القائمة الرسميين والمؤيدين الطيحين للقانون ، يحاولون أن يقللوا من نفوذ الصحافة عن طريق تركيز قوتها . ويبدو أن حكومات أوروبا تعامل الصحافة بذلك النوع من المجاملة الذى كان الفرنسيون فى القديم يعاملون به خصومهم . فبعد أن عرفوا بالخبرة أن التركيز سلاح ماض ، عملوا على تزويد خصومهم به كى ينالوا مجداً أعظم من مصارعهم والظفر بهم .

لا تكاد تخلو قرية فى أمريكا من صحيفة يومية خاصة بها . ومن الميسور أن ندرك أنه لا النظام ولا الوحدة فى العمل يتسنى أن تقام بين عدد كبير من المتصارعين . فلا غرو إن كان كل واحد منهم يناضل وحده مستقلاً بنفسه تحت علمه الخاص . ولا شك فى أن جميع الصحف السياسية التى فى الولايات المتحدة تقف كلها صفاً واحداً فى جانب الإدارة أو ضدها ، ولكنها تهاجمها أو تدافع عنها بالآلاف من شتى الطرق المختلفة . فالصحافة لا تستطيع أن تكون تلك الآراء القوية التى تحرف تياراتها العنيفة أمع حاجز يقام فى سبيلها ؛ فأدى توزيع قوى الصحافة هذا إلى نتائج أخرى لا تقل شأنًا عما أشرنا إليه قبل .

فالتسهيلات التي يجدها كل من يشاء أن يخرج صحيفة جديدة ، أدت إلى إنتاج مئات من الصحف ، إلا أن المنافسة بينها حالت دون الحصول على أرباح وفيرة ، فقلما يرضى أحد من ذوى المقدرة والكفاية أن يعمل في الصحافة ، فبلغ عدد الصحف رقماً كبيراً . وحتى لو كانت هذه الصحافة مصدر ثراء عظيم لما تيسر إيجاد الرجال الأكفاء الذين يديرونها كلها خير إدارة . ومن ثم كان الصحفيون ، في الولايات المتحدة ، في مركز متواضع كل التواضع ، وحظهم من التعليم قليل ، وفي عقليتهم جفاء وغلظة . إن إرادة الأغلبية هي أعم القوانين جميعها ، وتخلق عادات معينة يتحتم على كل فرد أن يأخذ بها . وجملة هذه العادات المشتركة هي ما يسمونه « بروح الجماعة » في كل مهنة أو حرفة . فتم روح جماعة للمحامين ، وأخرى للقضاة ، وهكذا . وتتجلى روح الجماعة هذه عند الصحفيين الفرنسيين في شكل عنيف ، ولكنها كثيراً ما تكون عند مناقشة مصالح الدولة الكبرى معبرة وفصيحة ، سامية . وما يستثنى من ذلك في الكتابة قليل وعارض . فسمات الصحفي الأمريكي تتجلى في اتجاهه الجاف السافر إلى مشاعر وانفعالات قرائه ، فتراه يغفل كل المبادئ السامية ويهاجم الأفراد في أعراضهم ويتعقبهم في منازلهم ، وفي حياتهم الخاصة ، يفضح رذائلهم ويكشف عن نقاط ضعفهم .

وليس شيء أدعى للأسف والرتاء من سوء استخدام قوة التفكير . هذا ، وستاح لنا الفرصة فيما بعد لبيان سوء تأثير الصحافة في أذواق الشعب الأمريكي وفي أخلاقه . أما الآن فموضوعنا مقصور على عالم السياسة وحده . هذا ، وليس من ينكر أن النتائج السياسية التي تترتب على الإسراف الشديد في حرية الصحافة ، تتجه بطريقة غير مباشرة إلى المحافظة على النظام العام . فالأفراد الذين يحترمهم المواطنون احتراماً عظيماً يتخرجون من الكتابة في الصحف السيارة ، وبذلك يحرمون أنفسهم أقوى أداة يستطيعون استخدامها لإثارة مشاعر الجماهير لما فيه مصلحتهم هم .

وليس لآراء المحررين الشخصية أى وزن في نظر الجمهور . فالناس لا ينتظرون من الصحيفة إلا أن تزودهم بالحقائق والوقائع ، ولا يستطيع المحرر أن يسهم في تكوين آراء الجمهور الخاصة إلا عن طريق تغيير هذه الوقائع وتلك الحقائق أو تحريفها عن مواضعها .

فعلى الرغم من اقتصار الصحافة في أمريكا على هذه المصادر فأتاها فيها عظيم . فهي التي تشيع الحياة السياسية في كل أرجاء هذا الإقليم المترامي الأطراف ، وعيونها يقظة مفتوحة دائماً لإدراك ما عساه يكون كامناً وراء الخطط السياسية من دوافع خفية . وتدعو زعماء الأحزاب المختلفة ، كلاً بدوره ، إلى الوقوف أمام الرأي العام ، وتكفل مصالح المجتمع حول مبادئ معينة ، وترسم لكل حزب عقيدته ومبادئه . وذلك لأنها تتيح وسيلة اتصال لأولئك الذين يخاطب بعضهم بعضاً ويسمع بعضهم بعضاً دون أن يتصلوا أبداً اتصالاً مباشراً . فإذا ما سلك عدد من الصحف مسلكاً واحداً معيناً صار نفوذها

على المدى البعيد نفوذاً قوياً كل القوة لاقبل لأحد بمقاومته . وإذا ما ظل الرأي العام يتلقى الهجمات باستمرار من ناحية واحدة معينة ، كان لابد أن ينتهي به الأمر إلى التسليم لمهاجميه . فكل صحيفة على حدة من صحف الولايات المتحدة لا يمكن أن يكون لها سوى أثر ضئيل ، على حين أن قوة الصحافة الدورية مجتمعة لا يفوقها غير قوة الشعب نفسه .

كثيراً ما تكون الآراء التي قامت في الولايات المتحدة بتأثير حرية الصحافة أرسخ من الآراء التي تكونت في بلاد أخرى بإشراف رقيب المطبوعات

تدعو الديمقراطية في الولايات المتحدة رجالاً جدداً باستمرار ليتولوا إدارة الشئون العامة في البلاد . ومن ثم ندر أن تحتفظ الإدارة فيها بأى استمرار أو نظام فيما تسير عليه من إجراءات . أما مبادئ الحكم العامة فأثبت من ذلك وأبقى . وكذلك الآراء السياسية التي تنظم شئون الجماعة . فهي الأخرى أثبت وأدوم في الولايات المتحدة منها في بلاد كثيرة . فإذا ما اعتنق الأمريكيون فكرة ما ، سواء قامت على أساس وطيء ، أو كانت لا أساس لها ، صعب اقتلاعها من عقولهم كل الصعوبة . وقد لوحظ مثل هذا التثبيت الشديد بالآراء في القرن الثامن عشر في بلاد الإنجليز حيث كانت حرية الفكر واسعة فيها ، كان فيها كذلك تعصب شديد أكثر وأشد مما كان في أى بلد آخر في أوروبا - وفي رأى أن هذا يرجع إلى سبب قد يبدو لأول وهلة أنه ينتجه وجهة مضادة . وما هذا السبب غير حرية الصحافة . وفي الأمم التي قامت فيها حرية الصحافة هذه ترى الناس يتشبثون بآرائهم عن كبرياء بقدر ما يستمسكون بها عن إيمان واعتقاد . فهم يستمسكون بها لأنهم اعتقدوا أنها آراء عادلة ، ولأنهم اختاروها من تلقاء أنفسهم اختياراً حراً ؛ وهم يستمسكون بها ، لأنها اعتقادات صادقة فحسب ، بل ولأنها اعتقاداتهم هم . وهناك أسباب كثيرة أخرى تؤدى إلى هذا الاتجاه نفسه .

قال كاتب عبقري إن الجهل يجثم دائماً عند طرفي المعرفة ، ولعله أصدق من ذلك أن نقول إن الاعتقادات الراسخة لا توجد عند الطرفين ، أما الشك ففي الوسط . والحق أننا نستطيع أن ننظر إلى العقل البشرى من حيث أحوال ثلاثة متمايزة ، وكثيراً ما تتوالى الواحدة منها بعد الأخرى .

فقد يعتقد المرء منا بشئ اعتقاداً راسخاً من جراء ثقيله فكرة أو قضية ما ، من غير فحص ؛ ثم تساوره الشكوك عندما تواجهه اعتراضات عليها ، إلا أنه كثيراً ما يفلح في تهدئة هذه الشكوك ، ثم يعود إلى معتقداته ذاتها من جديد وعندئذ ، لا تكون نظرته إلى الحقيقة هذه المرة غامضة ولا عابرة بل تتجلى له الحقيقة واضحة ، فيسير على هديها قدماً . فعندما تعمل حرية الصحافة عملها في أقوام لا يزالون في أولى هذه الحالات الثلاث ،

فإنها لا تقلقل فوراً عاداتهم في أن يعتقدوا ما يعتقدونه من غير فحص أو تحرر ، ولكنها تغير كل يوم موضوعات معتقداتهم هذه غير المبنية على أى تفكير . ويظل العقل البشرى لا يميز سوى نقطة واحدة في الوقت الواحد في الأفق العقلى كله ، ومع ذلك فهي نقطة تتغير على الدوام . فهذا هو الوقت الذى تحدث فيه ثورة مباغته أو انقلاب مفاجئ ، فويل لذلك الجيل الذى يختار أول ما يختار الأخذ بمبدأ حرية الصحافة فجأة !

ومع ذلك فما أسرع ما تنتهى سلسلة تلك الآراء المستحدثة ، وبأقوى دور الخبرة الواقعية ، فيتبين للناس عندئذ أنهم مخدوعون . فلا غرو إن تورطوا في الشكوك والريب وإساءة الظن بكل شيء . ولا يخفى أن معظم الناس سيظلون دائماً في حالة من حالتين اثنتين : فإما أن يؤمنوا من غير أن يعرفوا لإيمانهم هذا سبباً ، وإما أنهم لا يعرفون على وجه الدقة ماذا الذى يجب أن يؤمنوا به . فما أقل أولئك الذين يبلغون حالة الإيمان القائم على أساس من الروية والتفكير المستقل الذى تهدينا إليه المعرفة الصحيحة وسط ما يساورنا من شكوك !

ومن المشاهد أن الناس في أوقات النحس الدينى الشديد قد يغيرون آراءهم الدينية ، على حين يستمسك كل واحد منهم بمبادئه القديمة في الأوقات التى يزداد فيها التشكك العام بين الناس ويشتد . وهذا نفسه يحدث في السياسة ، عندما تكون الصحافة حرة . ففي البلاد التى درست فيها كل نظريات العلوم السياسية ونوقشت الواحدة منها بعد الأخرى يستمسك الناس بالنظرية التى اختاروها منها ، لأنهم استوثقوا من صحتها ، بل لأنه ليس أمامهم نظرية أخرى خير منها .

وليس الناس في عصرنا الحاضر مستعدين كل الاستعداد للتضحية بأنفسهم في سبيل آرائهم ، ومع ذلك فمن النادر أن يميلوا إلى تغييرها . فلم يعد لدينا سوى عدد قليل من الشهداء ، ولم يتبق سوى القليل من الصابئين المرتدين .

وثم سبب آخر أقوى من هذا وأرجح . فعندما لا يجد الناس أمامهم آراء ثابتة أكيدة اتجهوا إلى الاستمسك بنزعاتهم الفطرية ومصالحهم المادية وحدها ، وهى ثابتة بالطبع ، وأمور محسوسة ودائمة ، أكثر من أى آراء في العالم .

فأيهما أحسن حكماً : الديمقراطية أم الأرستقراطية ؟ تلك مسألة يصعب البت فيها كل الصعوبة ، ولكن مما لا شك فيه أن الديمقراطية تضايق قسماً من الجماعة ، وتظلم الأرستقراطية القسم الآخر . إنها لحقيقة قائمة بذاتها ، وواضحة لا تحتاج إلى جدل أو نقاش .. « أنت غنى وأنا فقير » .